الحركة القومية الحاضرة
وجذورها التاريخية

نقولا زيادة

في مطلع القرن التاسع عشر كان الشرق العربي قد مرت عليه ثلاثة قرون وهو جزء من الامبراطورية العثمانية . وكان العرب المشارقة قد شعروا في اول الامر بعظمة الدولة العثمانية ايام كانت واسعة قوية تنتقل من نصر الى نصر . كما ان الشرق العربي كانت قد مرت عليه قرون متطاولة منذ ان اصبح الاسلام دين الكثرة الغالبة فيه . وقد صنعت هذه المنطقة الجزء الاكبر من الحضارة العربية الاسلامية . ولما كانت الدولة العثمانية دولة مسلمة ، فان الشعور بقوتها وعظمتها كان تقوية للشعور بعظمة الاسلام بعد ان تقطعت اوصال الدول العربية المختلفة ، وتقسمت الامبراطورية الواسعة دويلات لم تقو على حمل العبء والقيام بالمسؤولية الكبرى التي كانت قد اضطلعت بها الامبراطوريات من قبل .

ترتب على هذا كله ان سكان العالم العربي الشرقي كانوا ، حتى مطلع القرن التاسع عشر ، يدينون بالولاء للدولة العثمانية والاسلام . وتبع ذلك ان عنصري التعرف الى الذات فيما بينهم ، او اساسي الهوية الذاتية ، هما العثمانية والاسلام . بحيث انه لو اجري يومها استفتاء اساسه: بماذا يعرف المرء نفسه؟ لقال انه عثماني مسلم.

لكن ما كاد القرن التاسع عشر يلتهم عقدين او ثلاثة من نفسه حتى اخذ الشرق العربي يشعر بامرين هامين يبرزان بشكل فيه الكثير من الوضوح . اما اولهما فضعف الدولة العثمانية ، واما الثاني فتسرب آراء جديدة الى عقول ابنائه . ويجب ان نذكر ، قبل ان ننتقل الى توضيح هذين الامرين ، انهما انما احتاجا الى وقت طويل حتى اتسعت حلقة الجماعات التي شعرت بهما ، وحتى استقرت آثارهما في نفوس عدد كبير من الناس .

فنحن عندما نتذكر ان الدولة العثمانية بدأ يتضح ضعفها بالنسبة الى البعض لما عجزت عن الدفاع عن مصر ضد نابليون اذا احتلها (١٧٩٨) ثم لما لم تتمكن من اخراجه منها منفردة؛ وان هذا العجز بدا اوضح لما استقلت اليونان عنها، ثم ازدادت الغشاوة انقشاعا عن العيون لما انتزعت فرنسا الجزائر دون ان تقاومها الدولة العثمانية؛ — عندما نتذكر هذا نتأكد من ان احتلال فرنسا لتونس (١٨٨١) واحتلال بريطانيا لمصر (١٨٨٢) زادا من تقليل شأن تلك الدولة في نظر عدد كان يزداد سنة بعد سنة . وهكذا فقد ترتب على ذلك ان احدى دعامتي الولاء، او التعرف الى النفس ، اللتين ذكرناهما قبلا ، قد انهارت، او على الاقل اوشكت على الانهيار.

على ان تسرب الآراء الجديدة كان افعل في نفس اهل الفكر ورجال القلم ، وان لم يكن اثره في الشعب كبيرا . ذلك بان القرن التاسع عشر كان زمنا انفتح فيه باب الآراء الجديدة على مصراعيه . فالمصريون الذين تعلموا في اوربا ، والمدارس الاجنبية التي فتحت في لبنان وفلسطين وسوريا ، ومعاهد الدراسة العالية التي انشئت ، والصحف التي اسست ، والكتب التي ترجمت ، والرحالة الذين زاروا وكتبوا ووضعوا — كل اولئك كانوا سبيلا لتطعيم المجتمع العربي الشرقي بمجموعة من الآراء والافكار والقيم والمقاييس التي كانت جديدة على قوم كانت قد مرت عليهم قرون وهم في حالة من السبات الفكري والادبي غريبة عجيبة . والآراء التي جاءت كانت آراء قوية ديناميكية تنبض بالحياة . كانت آراء قد صقلتها تجربة قرون عرفت فيها شعوب اوربا النهضة والاصلاح الديني والاكتشافات الجغرافية وكشف قواعد العلم واستجلاء مجاهل الكون والتعبير

الادبي الجديد والاهتداء الى امور في الحياة التقنية (التكنولوجية) عظيمة الاثر في تغيير معالم الحياةوقواعد الاستثمار واساليب الافادة والاستغلال . ومن ثم فقد كان هناك اعجـــاب بهذه الآراء الجديدة ، وعناية ، رسمية وخاصة ، بآثارها ومظاهرها وتطبيقها .

ولن يتسع المجال لتتبع هذه الآراء في مجالاتها المختلفة ، ولكن لا بد لنـــا ، رغبة منا في توضيح ما نحن بسبيله ، من الاشارة الى بعض هذه الآراء ، ولو بايجاز قد يكون مخلا .

اولا ، في القرن التاسع عشر جاءت الشرق الاوسط ، عربيةوغير عربية ، آراءالثورةالفرنسيةوتعاليمها. حملها طلبة العلم الذين يمموا شطر اوربا لينهلوا من علمها ، فتعلموا الطب والكيميـاء والطبيعة والهندسة والجغرافيا لكنهم لم يغفلوا ، لانهم لم يستطيعوا ان يغفلوا ، ما كان الناس هناك يتحدثون عنه ويفكرون فيه ، وهم بعد حديثو عهد بالثورة وحروب نابليون ، وما جاء مع الواحدة والاخرى . ومـــا كان هؤلاء النفر الذين ذهبوا ليغرفوا العلم ، مصريين كانوا او اتراكا او غيرهم ، ان يقفوا من هذه الامور كلها موقف المتفرج . لقد انغمس كثيرون منهم في الجو الذي عاشوا فيه وقبلوا او رفضوا آراءه ، وعادوا الى بلادهم دعاة لهذه الآراء او خصوما لها . وقد حمل هذه الآراء ايضا الرحالة الذين زاروا اوربا ، فاعجب بعضهم بما فيها ، وازور عنه آخرون . وعاد المعجب والكاره وكل يدلي بدلوه بين الدلاء كتابة او حديثا ، على نحو ما نعرف من «تلخيص الابريز » لرفاعة الطهطاوي ، او من « اقوم المسالك » لخير الدين التونسي ، او مقالات المراشين الحلبيين ، او غيرهم . وقد حمل هذه الآراء ايضـــا المعلمون الذين عملوا في المدارس الافرنسية في هذه الرقاع المختلفة – كاساتذة المعاهد العليا في مصر وتركيا ، ومدرسي المدارس الثانوية والابتدائيـــة في لبنان وسوريا وفلسطين وغيرهـــا .

هذه الآراء والتعاليم كانت تدور حول امور معينة ، هي الحرية والمســـاواة والاخاء . ولسنا نزعم ان الشرق العربي ، او حتى الشرق الاوسط ، لم يكن يعرف هذه الكلمات او معانيها قبل ان يتصل باوربا القرن التاسع عشر ، لا . كان يعرفها ، ولكن معنى جديدا دخلها مع مجيء هذه الآراء الجديدة . فكلمة « حرية » كثيرة الورود في الادب العربي ، والادب الاسلامي بوجه خاص . ولكنها كانت تستعمل في مجـــال النقاش الديني من حيث الجبر والاختيار ، وحرية الانسان في حياته وقضاء الله فيه . ومثل ذلك يقال عن المساواة . فقد زخر الادب الديني بها ، من حيث انها مساواة المؤمنين امام الله فلا يفضل واحدهم الآخرين الا بالتقوى. ولكن الشيء الجديد الذي دخل معنى « الحرية » نتيجة للاتصال بالغرب ، هو المعنى الحيـــاتي العلماني : حرية الناس في حياتهم السياسية والمدنية ، ومساواتهم امام القضاء وفي الفرص المختلفة ؛ حرية الناس بالنسبة لبعضهم البعض ، وعلاقاتهم واحدهم بالآخر هي التي اصبحت مدار بحث وتفكير ودرس وتأمـــل ، ولو ان هذه كانت ، اول الامر ، تدور حول هذه القضايا دون ان تتعمق فيها ، لكن لم تلبث ان اخذت تبحثها بحثا اعمق واوفى في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

ثانيا ، حمل الادب الغربي الذي نقله المترجمون الى العربيـــة (والتركية) فكرة الثورة على الاستبداد في تضاعيف ما حمل . وكان هذا يعبر بطبيعة الحال عن الثورة الفرنسية . وجدير بالذكر ان المكتوب عن هذا الموضوع بالذات كان قليلا ، ولكن المحكي كان اكثر . على انه يجب ان نذكر انه في مطلع القرن التـــاسع عشر فتحت مدارس للامريكان في لبنان خاصة ، وجاء معلمون ومبشرون يعملون فيها . وهؤلاء القوم كانوا قد خرجوا قبل مدة قصيرة من ثورة ضد بريطانيـا انالتهم استقلالهم . وكان من الطبيعي ان يتحدثوا عن هذا الذي تم على ايدي بلادهم الفتية. ومن ثم فقد اجتمع ، في لبنان على الاقل ، فكرتان عن الثورة – الثورة على الحكم المستبد المطلق الفردي يقوم بها ابناء البلد ضد السلطان (على غرار فرنسا) ، والثورة التي تقوم بهـــا جماعة للتخلص من نير اجنبي يؤدي الى الاستقلال (على نحو الولايات المتحدة) . هاتان الفكرتان امتزجتا في تفكير الكثيرين وتداخلتا ، ولعلها ، مع فكرة القومية التي سنعرض لها فيما بعد ، مسؤولتان عن ان هذه الرقعة الصغيرة من المنطقة دعت الى شيء من الاستقلال ، مع الثورة ، اكثر من غيرها – ونقصد الاستقلال عن الدولة العثمانية .

ثالثا ، بين الآراء التي هبطت المنطقة مع هذا الاتصال بالغرب فكرة وضع دستور للبلاد يحدد مهمة الحاكم ويقيده . هذه كانت بين الافكار المتأخرة نسبيا . لكنها لما اخذ بها رجال السياسة دفعوا بها الى الامام دفعا كبيرا . كان من الطبيعي ان يعنى بها القادةالاتراك بشكل خاص لان السلطان منهم وفي بلادهم. وقد دعوا الى وضع دستور للدولة لان الحاكم كان مطلق التصرف ، لا حدود لقوله او حكمه . حقا ان احكام الشرع كان باستطاعتها ان تقيد الحاكم كثيرا وتحد من تصرفاته لو انه راعاها . لكنه لم يكن ينظر اليها نظرة واقعية . ومن ثم فاننا نجد ، ولا غرابة ، ان كلمة « الدستور » من توضيح لحقوق الشعب ، وتحديد لسلطة الحاكم ، وتبيين للاداة اللازمة لتنفيذ الامرين ، كانت تشغل بال الكثيرين . على انه حري بالذكر ان رفاعة الطهطاوي ، فيما نعلم ، كان اول من ترجم الدستور الفرنسي الى لغة شرقية . فقد حمل هذه الترجمة العربية معه لما عاد من باريس سنة ١٨٣١ .

وانتشرت فكرة المطالبة بالدستور ، اي دستور كان ، في المنطقة باسرها ، بما في ذلك ايران ، وترتب على ذلك ان انواعا مختلفة من القوانين الاساسية سنّت واعلنت. فاصدر باي تونس عهد الامان (١٨٥٧) ونشر السلطان عبد الحميد الثاني الدستور العثماني الاول (١٨٧٦) الذي سمي « المشروطية » ، كما اعد الخديوي اسماعيل وثيقة هي بمثابة قانون اساسي لمصر قبل اعتزاله الحكم (١٨٧٩) بقليل .

رابعا ، يجدر بنا ان نذكر ان المعاهد المختلفة التي انشئت في المنطقة، سواء في ذلك العالي منها ام الثانوي، اخذت على عاتقها تعليم العلوم الحديثة — من طب ورياضيات وفيزياء وكيمياء وعلم الحياة . هذه العلوم دخلت المنطقة لاول مرة في القرن التاسع عشر ، وفتحت عيون الطلاب الى حقائق عن الكون والحياة لم تكن معروفة من قبل . رأى الطلاب التجارب العلمية والاختبارات، وشرّحوا الاجسام ، وشاهدوا كيف تتغير الاشياء بمزجها او خلطها بعضها ببعض، فاصبحت الدنيا عند الكثيرين منهم شيئا يمكن ادراكه بمقاييس جديدة، ويمكن تفهمه في اطر جديدة ، ويمكن التعرف اليه من زوايا جديدة. انه لمن البيّن ان القرن التاسع عشر لم تنشأ فيه تقاليد علمية مستمرة ، وكان على كل جيل ان يبدأ من جديد ، لكن التعرف الى العلم ، والاحساس بوجوده ، والشعور به اخذت سبيلها الى نفوس فئة من اهل المنطقة .

خامسا ، على اننا اذا نحن امعنا النظر في ما وصل الى هذه الديار من الغرب ، عن طريق الفكر السياسي والادب والعمل السياسي وامثلة التاريخ في القرن التاسع عشر ، لوجدنا ان القومية والآراء المتعلقة بها كانت الاكثر ما ملأ على الناس قلوبهم ونفوسهم . فقد اثارت في النفوس الكثير من الحمية ، وذلك بسبب اعتمادها على العواطف والبطولة اول ما وصلت، وبسبب الثوب الرومنطيقي الذي حملها الينا ، وهو ثوب فضفاض حري بان يملأ البردين ويهز الاعطاف. وقد جاءت هذه الافكار فاحدثت رد فعل في المجتمع التركي وفي المجتمع العربي المجاور وفي المجتمع المصري ، وكان ثمة تجاوب مستقل بين كل من هذه المجتمعات والآراء القومية القادمة من الغرب . وهذا التجاوب المتوازي احدث ، فيما احدث ، رد فعل عدائيا على جانبي الخط العربي التركي .

هذه الآراء التي وصلت الى المنطقة في القرن التاسع عشر ، والتي اخذت تنمو في رقاع ضيقة اولا ، ثم بين فئات تتسع رحابها شيئا فشيئا ، تركت في النفوس آثارا جديدة يمكن اجمالها فيما يلي :

اولا ، ساور بعض النفوس قلق جديد في معنى المجتمع الذي كانوا قد الفوه . وكأن الغشاوة التي كانت قد انسدلت على العيون دهرا طويلا اخذت في الانقشاع تدريجا . وبذلك اخذوا يدورون حولهم باحثين في صحة المقاييس التي كانوا يقيسون بها مجتمعهم وما فيه من نظم . ولا نقول ما فيه من قيم خلقية اصيلة : فذلك امر آخر . ولكن المقصود هو النظم التي كانت تتحكم فيهم وتقولب حياتهم ، سواء في ذلك نظم الحكم ام نظم المعاش ام نظم العلاقات الاجتماعية الفردية والعامة .

ثانيا ، ادى هذا القلق الى اثارة السؤال الذي كان لا بد من ان يثار . هل الاسس التي يقوم عليها المجتمع الذي يعيشون فيه صحيحة ؟ هل هي مناسبة ؟ هل هي بحاجة الى تغيير ؟ وعلى كل ، فلماذا ؟ نظروا حولهم ، فئة قليلة نسبيا ، فوجدوا ان مجتمعهم كان اساسه الدين : الاسلام . ولكن هذه الآراء التي جاءتهم،

جاءتهم من بيئة علمانية . ومن ثم كان هذا التناقض . ولا بد من تفهم اسباب هذا التناقض ، بل من الواجب البحث عن حل . واذا كان ذلك واجبا ، فما هو نوع الحل ؟ ايتأتى من احلال مقاييس جديدة محل المقاييس القديمة ؟ وعلى فرض ان هذا هو الواجب اتباعه ، فما هي الفضائل في المقاييس الجديدة ، ان كانت لها فضيلة ؟ وما هو عيب المقاييس القديمة ، ان كانت لها عيوب ؟

ثالثا ، الواقع ان الذي شغل الكثيرين من رجال الفكر في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين هو انهم ادركوا ان مجتمعهم كان يقوم على اساس الدين ، وان الآراء الجديدة علمانية . فما هو نوع المجتمع الذي يجب ان يخلقوه ، او يكونوه ، او ينشئوا افراده ؟ اينتبذون من دون هذا الجديد مكانا قصيا يعصمهم من الغرق في خضمه ؟ ام يلقون بدلوهم بين الدلاء ؟ ايؤثرون العافية فيظلون حيث كانوا ، ام يجابهون المشكلة ويتحدون الطارىء عليهم ليتفهموه ، بقطع النظر عما ينتهي اليه الامر ؟ يبدو ان اولئك القوم لم ينتبذوا مكانا قصيا ، ولم يؤثروا العافية . لقد وقفوا للتحدي يستجيبون له . ولكنهم كانوا قلة بادىء ذي بدء ، ومن ثم فقد كان اثرهم ضعيفا نسبيا . انهم اقتنعوا بوجوب تبديل الاسس لاقامة مجتمع سياسي . ولا يزال الكتاب والزعماء يفكرون ويبحثون ويفتشون وينقبون .

هذا القلق هو الذي اضعف ، ولا نقول اكثر من ذلك ، الدعامة الثانية من دعامتي الولاء . فضعف الدولة العثمانية وما اصابها من وهن قضى على الدعامة الاولى — العثمانية . والآراء الجديدة اثارت بعض الريب حول قيمة الدعامة الثانية — اي الدين — من حيث صلاحيتها كأساس للتعرف الذاتي او لتوضيح الهوية .

اما وقد اخذ الناس هذه الامور ، فقد اصبح من المتحتم على اهل القلم ورجال السياسة عندما يتاح لهم ان يفكروا بهذه الامور والعاملين في ميدان الفكر وحاملي لواء الادب ان يبحثوا عن دعامات جديدة للولاء وأسس جديدة للتعرف الذاتي او الهوية . فكيف تم لهم ذلك ؟

حول نهاية القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الاولى كانت منطقة الشرق الاوسط قد مرت بها تجارب سياسية وفكرية احدثت آثارا في النفوس كانت ، فيما نعتقد، جماع ما حاولته المنطقة لاعتماد دعائم جديدة للولاء ، ومقاييس جديدة للتعرف الذاتي . بعضها اساسها نقد ذاتي دقيق منظم ، وبعضها اتجاهات عاطفية ، وفيما بين هذه وتلك قامت نزعات اخذت من البحث نصيبا ، واعتمدت العاطفة حينا . هذه الاتجاهات الجديدة ظهرت في المجتمع التركي والمجتمع العربي ووادي النيل وفي الدولة العثمانية عامة وفي المجتمع الاسلامي الكبير الواسع المترامي الاطراف . بعض هذه الحركات يمكن التعرف الى جذورها واصحابها ، ولكن بعضها يمكن تقري معالمها بشيء من الصعوبة . بعضها واضح وبعضها غامض . بعضها كان له مخطط بيّن، والبعض الآخر لم يتبلور تماما ، ولعله لما يتبلور بعد . والذي نود ان نفعله الآن هو ان نرسم الخطوط العامة لهذه الاتجاهات ، ناظرين اليها من زاوية المحاولة لوضع اسس لدعائم المجتمع السياسي الجديد الذي كانت النية متجهة ، شعوريا في اكثر الحالات ، ولا شعوريا في بعضها ، الى اقامته .

في هذه الرقعة الواسعة نشأت القومية التركية . نشأت متأثرة بالافكار التي جاءت من الغرب . نشأت على ان الاتراك امة ذات خصائص قومية متميزة . وهذه القومية التركية ترتكز على اللغة والادب ودرس التاريخ . وقد كان لثلاثة من كتاب الاتراك في القرن الماضي اثر كبير في احياء اللغة التركية ، هم شناصي افندي ونامق كال وضيا باشا . فقد عملوا على ترجمة عيون الادب الغربي اليها ، ونشروها بين المتعلمين ، وانشأوا الجرائد اليومية ، والفوا بها القصص والكتب مستمدين من تاريخ الاتراك مثلهم ومواضيعهم . وعلى ايديهم اتخذت بعض الكلمات القديمة معاني جديدة . فبعد ان كانت كلمة « وطن » يفهم منها البيت او مكان الميلاد ، صارت تدل على البلاد ، وبعد ان كانت كلمة « ملت » تعني جماعة دينية ، اصبحت تشير الى الشعب .

وفي اوائل القرن الحالي نجد جماعة من شباب الترك يعلنون في جريدة «الاقلام الفتية» ان لغة جديدة وادبا جديدا ومدنية جديدة ، تستمد اصولها من الروح التركية وحدها ، قد ظهرت. وخير من يمثل النزعة التركية الحديثة في الادب واللغة اثنان : خالدة اديب وضيا الب بك . اما الاولى فقد حضرت اجتماعا طورانيا وسمعت ما القي فيه من الخطب وكتبت عقيب ذلك تقول: «بينما كنت اصغي لتلك الخطب شعرت ان روحي

تحركت من اعماق نفسي وادركت الى اي حد تتأصل اماني تركيا الحديثة في وجود اجدادنا. فقد وصلت الي نغمات موسيقية منبعثة من دمنا الطوراني وحملتني معها حتى انني الى هذه الساعة اشعر كأنني اسمعها . وقد وثقت عندهـــا انه يتوجب علينا ان ننحدر الى ينابيع الحياة لنحصل على الروح التي يجب ان نبثها في شعبنا لنتمكن من الوصول به الى الاهداف السياسية التي نرمي اليها » . واما الثاني فقد قـال في اشعاره : « ان الشعور الذي يجري في دمي هو صدى ماضيّ ، وان اعمال اسلافي المجيدة اتحسس آثارها في الدم الذي يجري في عروقي وفي قلبي ، بعد ان كنت اقرأهـــا في صفحات جافة مغبرة صفراء من كتب التاريخ . ان اتيلا وجنكيز خان ، وهما معجزة جنسي ومظهر عظمته ، ليسا دون الاسكندر وقيصر . و اغزخـان لا يزال حيا في قلبي وفي دمي بكل عظمته وبهائه ، وهو الذي ينشر السرور في قلبي ويحدوني الى ان اصرخ بحماسة قائلا : ليست بلاد الاتراك تركيـــا او تركستان فحسب ، ولكنها طوران الخالدة » . وقال في مناسبة اخرى : « ليست طوران مسرحـــا خياليا . فان القبائل التركية المنتشرة في آسيا ستلتف حول العلم التركي وتنشىء امبرطورية عظيمة . والاتراك يجب ان يتحدوا ويخلقوا حياة خـالدة هي جماع ما في حياة افرادهم من قوة » .

هذه القومية التركية كان يدعمها ، قبـــل زوال الدولة العثمانية ، شعور بان الاتراك سادة دولة عظيمة . ولانهم كانوا سادة فلهم ان يحوروا حياة الشعوب التي يحكمونها على النحو الذي يريدون . ومن ثم فقد خطر لهم ان « يتركوا » سكان الامبراطورية العرب عن طريق تبديل لغتهم . فجعـــلوا لغة التعليم الرسمية اللغة التركية ، حتى ان قواعد اللغة العربية كانت تعلم في بعض مدارس الاقطار العربية عن طريق اللغة التركية .

على ان القومية التركية كان لها مجالها المحدود ، ولعله اتيح لها ان تعبر عن نفسها في اعقاب الحرب العالمية الاولى اذ قام كمال اتاتورك ينعش البلاد والعباد .

اما تأثر العرب بالآراء القومية القادمة من اوربا ، فقد ترك في نفوسهم رد فعل قويا ، فاخـــذوا يعبرون عنه تدريجا في قصائـــد (مثل بطرس البستاني) وفي كتابة (مثل عبد الرحمن الكواكبي) وفي شيء من التخطيط العام (مثل نجيب عازوري) . ولكن الذي نود ان نؤكـــد عليه هو ان هذه الآراء كان يغلب عليها اللمعات العابرة والتغني بالامل المنشود، وهذا طبيعي. فـــلم يكن بامكان اولئك الناس الذين لم يمحصوا قضية القومية ولم يتفحصوا عواملها ولم يتدارسوا اسسها ان يكون عندهم اكثر من ذلك . وقد يكون الامر اختلف بعض الشيء بعد ١٩٠٠ بسبب قيام القومية التركية وسيرها في خط مواز من جهة، لكنه سير متحدّ للعرب من جهة اخرى . هذا التحدي المدعوم بالسيادة هو الذي اثـــار في العرب الرغبة في الاستقلال او في اقامة الكيان المعبر عن النفس .

وثمة ملاحظة اخرى هامة تتعلق بما قيل او يقال عن القومية العربية في تلك الفترة ، وهي ان غالب مـا كتب ، ان لم يكن كله ، كان المقصود به ســـكان المنطقة التي تعرف جغرافيا باسم الهلال الخصيب – اي العراق وسوريا ولبنان وفلسطين .

والامر الثالث الذي يجب ان يذكر عن هذه الدعوة القومية ، هو انها تراوحت بين الرغبة في الاستقلال عن الدولة العثمانية وبين البقـــاء تحت سلطانها على شريطة ان يتاح للعرب ان ينمّوا شخصيتهم ويعيدوا لها اعتبارها . ويتضح هذا من المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس (١٩١٣) . وما دمنا في سبيل ذكر هذا المؤتمر فانشر الى الجمعيات السرية التي نشأت في العالم العربي وفي استانبول في السنوات السابقة للحرب العالمية الاولى ، مثل العهد والاخاء والمنتدى .

والذي نراه هو ان هذا الاندفاع العاطفي وراء فكرة القومية العربية لم يعدُ كونه رغبة في التشبث بشيء يتخذه الناس اساسا لشخصيتهم بحيث يشعرون ولاء لشيء ما ، بعد ان تضعضع بعض ما كان يرتكز ولاؤهم اليه . وقد كان للعرب من تاريخهم الطويل المجيد ولغتهم الجميلة ذات الجرس والوزن ، ما يفاخر به . فاندفعوا مهتمين بالامرين . ولانهم تأثروا بالادب الرومنطيقي البطولي الذي جـاء من الغرب ، فقد كان تعبيرهم عن

شعورهم القومي رومنطيقيا ، فاستوحوا بطولات التاريخ ، ودعوا الى التنبه واليقظة ، وحـــاولوا تقليد الاوائل في انتاجهم الادبي واللغوي ليستشعروا المساواة بهم او التقرب منهم .

نظروا الى التاريخ فرأوا فيه مشاركة وتجارب واختبارات وطنية ، ورأوا في الادب ادبا قوميا وقصصيا وشعرا حماسيا بدا كله بلغة عربية . فقرأوه على انه نتـاج يدل على شعور موحد بالقومية ، ونظموا الشعر الحماسي لتخليد ذكره . ومما هو جدير بالاهتمام ان الذين كتبوا عن القومية العربية ودعوا اليها كانوا ينظرون اليها على انها تعبر عن « قوم» هم العرب، لكنهم لم يفكروا بالوطن والوطنية. وقلما ربطوا بين القوم وديارهم.

واذا كانت القومية العربية ، من حيث مفهومها في الفترة السابقة للحرب العالمية الاولى ، كانت عامة وان اختصت بالهلال الخصيب ، فانها اثناء الحرب اتخـــذت ، بسبب من الثورة العربية الكبرى (١٩١٦) ، اتجاهين هامين اولهما الاستقلال عن تركيا والتحرر منها ، والثاني انها اضـافت الجزيرة ، او على الاقل جزءا منها ، الى رقعتها . صحيح ان الكواكبي كان يفكر دوما بالحجاز اذ يتحدث عن القومية، ولكن الكواكبي، وخاصة عندما يفكر بالحجـــاز ، كان يتأرجح بين دعوة قومية عربية وبـــين دعوة اسلامية . و « ام القرى » شاهد على ذلك . ولكن الحرب العالمية الاولى ، ومـا اصاب الشرق العربي في اعقابها من تقسيم الى مناطق نفوذ ، كانت صدمة كبيرة للعاملين في الحقل السياسي وغيره من القائلـــين بالقومية العربية . ويمكن القول اجمالا انه في العقد الثالث واوائل العقد الرابع من القرن الحالي غلب على القومية العربية امـل الآملين وحلم الحالمين ، وان كان الرعيل الاول لم يغفل عنها بالاضافة الى جهاده السياسي المحلي في كل من الاقطـــار العربية على حدة .

ان الاحداث السياسية التي مرت بمصر خلال القرن التاسع عشر كان من شأنها ان تخلق في البلاد اتجاهـا قوميا خاصا بها . والواقع ان طبيعة القطر المصري حتمت عليه دوما ان تكون له وجهات نظر خـاصة ، سواء اكان جزءا من الامبرطورية الاموية ام العباسية ام العثمانية . اما في القرن التاسع عشر ، وخاصة نصفه الثاني ، وهو الوقت الذي اخذت دعامتا الولاء تهتزان شيئا فشيئا ، فقد كانت مصر قـــد شعرت بوجودها الخاص في ايام محمد علي الذي جعلها شيئا حديثا ووصلها بالعالم بعد انقطاع، كما انها قد استمرت في ذلك ايام اسماعيل . في هذا الوقت كانت مصر قد بدأت تعي بعض المشاكل التي نشأت عن كونها اخـــذت في اعتبار نفسها مجتمعا سياسيا الى جانب كونها مجتمعا دينيا ، بعد ان كانت من قبل مجتمعا دينيا بحتا . ثم لم تلبث ان احتلتها بريطانيا . وكانت هذه نقطة تحول هامة في طريق تعرف مصر الى ذاتها . هـــذا البلد الذي احتله اجنبي جديد يختلف في كل شيء عما عرفه والفه المصريون من قبل ، اصبح همه الاول اخراج هـذا المحتل . ومن ثم فان القومية التي عرفتها مصر حتى ثلاثينات القرن الحالي كانت قومية مصرية ووطنية مصرية . كانت تدور حول تحرير البلد من النير الاجنبي . هذه هي اهداف الدعـاة السياسيين منذ اواخر القرن الماضي الى الحرب العالمية الثانية . وهذه الاهداف واضحة في دعوة الحزب الوطني الذي قام به اول الامر الزعيم مصطفى كامل ثم حمل العبء بعده نفر من رجال الوطنية والسياسة . وهـذه الاهداف نفسها التي دعت اليها الاحزاب الاخرى وعملت من اجلها ، سواء في ذلك الوفد والاحرار الدستوريون وغيرهما . وعبارة « مصر للمصريين » التي كانت تتردد على لسان مصطفى كامل وغيره كانت تعني القول بان الاجنبي يجب ان يخرج من البلد ، الا انها كانت ايضا تعبيرا عن شعور بان هذا البلد له ميزاته وحياته واتجاهاته . وكان من الطبيعي ان تحتفظ بقاعدتها الاسلامية ، وان تستوحي التاريخ الاسلامي . ولكن في اطار هذه القاعدة كانت تنظر الى قوميتها ووطنيتها على انهما مصريتان، وكانت ترى في كفاحها وجهادها وتنظيمها وعملها كفاحا وجهادا وتنظيما وعملا مصريا . كانت هذه كلهـا تقوم في مصر ، وتهتم بمصر، وتكتفي بمصر . وكان ذلك امرا طبيعيا . اما ان تحمل مصر فكرة القومية العربية في تلـك الحقبة ، ويعزى اليها انها كانت قاعدة لها او دافعة ، فامر لا يقره النظر الصحيح الى الامور . واذا وقعنا على ما يحمل البعض على تفسير من هذا النوع ، فهو في الواقع امر عارض ، ويكون سببه اهتمام بعض من هاجر من ديار الشام الى وادي النيل بهـذه الامور والتعبير عن وجهات نظر

خاصة به او بجماعته .

واذا كنا نعثر في مصر ، وفي القرن العشرين بالذات ، على شيء يختلف بعض الاختلاف عن الدعوة الى قومية مصرية ووطنية مصرية ، فهو ان مصر عرفت نزعة فرعونية او دعوة اسلامية . والدعوة الفرعونية نفسها هي من المحاولات التي تم اللجوء اليها في سبيل ارساء دعامة جديدة للشخصية المصرية الحديثة . ولا شك انه من التجني بمكان ان يعزى الى كل من دعا الى الفرعونية في ذلك الوقت انه كان عميلا للخارج او صنيعة للاجانب او داعية للهدم . كان طبيعيا ان يجد بعض المصريين في هذا التاريخ المصري الطويل الذي يمتد آلاف السنين ، بعض الاسس الراسخة للشخصية المصرية ، خاصة بعد ان اصبح هؤلاء اوسع معرفة واعمق تفهما لمعنى هذا التاريخ بسبب الكشف عن الآثار وتوضيحها وتفسيرها والكتابة عنها . وقد كانت دراسة التاريخ المصري القديم والكشف عن كنوزه ومخبئاته من قبل وقفاً على الاجانب ، وقلما كان يكتب عنه بالعربية . اما في القرن العشرين ، فقد قام في مصر علماء آثار مصريون يكتبون باللغة العربية ولا يكتفون بالنقل فحسب . فعمّ البعض من المصريين شعور بالمجد والفخار ، وحسبوا ان هذا التعلق قد يصلح دعامة لشخصية بلدهم . وبقطع النظر عما كانوا يرتأون هم ، فالواقع ان النظرة التاريخية الاسلامية لمصر عزلت فترتين طويلتين من تاريخ مصر ، الاولى الفترة الفرعونية، والثانية الفترة الممتدة من فتح الاسكندر الكبير الى الفتح العربي، وهي فترة تمتد الف سنة . والفترتان كانتا غنيتين خصبتين من حيث الانتاج الفكري والادبي والفني . ولن نطيل على القارىء، ولكننا نحيله على كتاب « سندباد مصري » للدكتور حسين فوزي، ليرى كم تجنّى الكتّاب على تاريخ مصر لانهم اقتطعوها وتناسوا جذورها .

هذه القوميات التركية والعربية والمصرية اعتمدت التاريخ واللغة والعرق (احيانا) او الجهاد السياسي قواعد حاولت ان تقيم عليها دعائم لتفسير الشخصية وتحديدها ، رغبة منها في ان تملأ فراغا نشأ عن تضاؤل الدعامتين الاوليين او تدهور احداهما على الاقل واثارة بعض الشكوك حول الدعامة الاخرى . على انه كان ثمة حركة اخرى اعمق جذورا واوسع مدى واقرب الى قلوب الناس والصق بوعيهم ، ولذلك كانت لها قوة جذب كبيرة . والذي نقصده الجامعة الاسلامية ، التي يرتبط اسمها دائما بالسيد جمال الدين الافغاني ، وان لم يكن الوحيد الذي دعا اليها . هذه الدعوة الاسلامية التي تشمل المسلمين جميعا ، بقطع النظر عن مواطنهم و« قومياتهم » ولغاتهم، رمت الى اعتبار الاسلام الاساس الوحيد لتوضيح الشخصية ، والدعامة الوحيدة للتعرف الى النفس . ومعنى هذا ان المرء متى كان مسلما فهو فرد من « امة » مسلمة ومواطن في جميع اوطانها . ومن ثم فالمطلوب منه ان يتسع شعوره بحيث يتسع لجميع المسلمين ، ويجب ان تكون الرابطة بينهم قوة تمكنهم من تحقيق ثلاثة امور : اولها وقف الاعتداء الاوربي على ديار الاسلام ، وثانيها اخراج الاوربيين من ديار الاسلام التي كانوا قد تسلطوا عليها ، وثالثها النهوض بالمسلمين بحيث يستعيدون ما كان لهم من قبل من مجد وعز ومشاركة في الحضارة . هذه الدعوة لقيت ، بطبيعة الحال ، صدى واسع المدى في العالم الاسلامي ، فتردد فيه من اقصاه الى اقصاه .

على ان الدعوة الى الاحياء الاسلامي واصلاح المجتمعات الاسلامية كانت قد قامت من قبل على ايدي جماعة من قادة الفكر والسياسة في بقاع مختلفة من العالم الاسلامي . كانت كلها ترمي الى تعريف المسلمين بالاسلام الصحيح النقي وتخليصه مما علق به على مر القرون من امور خارجة عنه . وان كانت هذه الدعوات قد اتفقت كلها على المبدأ والاساس والغاية ، فقد اختلفت بعض الشيء في الوسيلة . ويكفي الواحد منا ان يتذكر الحركات الاصلاحية التي قامت حتى في الجزء العربي من العالم الاسلامي ليرى مدى التباين في الوسائل. ونحن نذكر القارىء ، على سبيل المثال لا الحصر ، بالدعوة الوهابية والحركة الاصلاحية السنوسية وقيام المهدي في السودان والاحياء الذي شمل بعض الطرق الصوفية ، ليتضح له الذي نقصده من تباين الوسائل . على ان دعوة السيد جمال الدين الافغاني كانت اوسع مدى وابعد مرمى . ذلك بانها هدفت الى اقامة رابطة عامة وجامعة اسلامية فيها فكرة التقارب السياسي لا مجرد اصلاح احوال المسلمين والنهوض بهم فئات

ومجتمعات . وقد تخطت هذه الدعوة ، بطبيعة الحال ، حدود الامبراطورية العثمانية . وكأنها ارتأت ان تضعضع الدولة العثمانية ، وزوال احدى دعامتي التعرف الى الشخصية ، لم يكن مهما ، بل ان المهم هو الحفاظ على الدعامة الاسلامية اساسا لهذا التعرف .

واصلاح المجتمع الاسلامي اخذ بعين الاعتبار التطور الذي اصاب العالم في نواحي العلوم والفنون ، وما نتج عن ذلك من تقدم في الحياة التقنية عرفت بعض الاقطار الاسلامية منه قسطا لا يستهان به. ولعل خير مثل يقدم على ذلك هو ما قام به الشيخ محمد عبده ، الذي عاش في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، والذي ادرك ، بثاقب نظره وعمق تفكيره ، انه من الضروري الاهتمام بهذه الامور التي عرفتها مصر فكرا وعلما وادبا وفنا نتيجة لاتصالها بالغرب ، والتي رآها هو ايضا اثناء اقامته ببيروت وزيارته لاوربا . ومن ثم فقد كان عمل محمد عبده يشمل هذه القضايا كلها ولم يحاول الابتعاد عنها او تخطيها اوتجاهلها ، على نحو ما فكر به آخرون ممن عاصروه او سبقوه ، او حتى بعض من جاءوا بعده .

عرفت اقطار الشرق الاوسط – تركيّها وعربيّها – في اواخر القرن الماضي ومفتتح القرن الحالي اتجاها آخر حاول دعاته الجمع بين الدعوة القومية من جهة، وبين سياسة واقعية علمية من جهة اخرى. وفي الواقع فانه ليس من السهل اعتبار هذا الاتجاه محاولة لخلق دعائم للتعرف الذاتي او الولاء ، الا انه جنح الى الافادة من النزعات القومية . فقد ظهر في الدولة العثمانية ، بين العرب والاتراك ، من آمن بوجوب الافادة من رغبة العرب في ان يكونوا عربا ، ومن رغبة الاتراك في ان يكونوا اتراكا ، على شريطة ان لا يكون ثمة انفصال واستقلال ومن ثم تقسم الدولة العثمانية . قالوا بان تظل الدولة العثمانية قائمة تظلل الجميع بظلها على ان يتاح لجناحيها – العربي والتركي – ان ينموا ويتقدما كل في اطار قوميته ، بحيث تنمو الشخصية العربية كما تنمو الشخصية التركية منفردة ومجتمعة . والذين حملوا هذه الراية في الجناح العربي من امبراطورية آل عثمان هم ، قبل كل شيء ، جماعة حزب اللامركزية . (ولعله من استباق الاحداث ان تسمى اية جماعة سياسية في ذلك الوقت حزبا ، ولكن هذه هي التسمية التي ارتضوها لانفسهم، ومن حقهم ان نحافظ لهم عليها). ومما ينتظم هذه الدعوة، ولو جزئيا ومن زاوية اخرى ، المؤتمر العربي الاول المنعقد في باريس (١٩١٣) ، وقد اشرنا الى ذلك من قبل.

هذه هي الدعوة الى الجامعة العثمانية . وهي وان كانت تتسم ببضع من سمات القومية العربية او القومية التركية ، ومع انها تشترك الى درجة ما مع الدعوة الى الجامعة الاسلامية ، فانها تختلف عن كل هذه بكونها تنظر الى الامر نظرة سياسية واقعية ، اي تأخذ الشيء القائم بعين الاعتبار . ولعل الذين وجهوا همهم نحوها تذكروا انه قبل قرن واحد فقط كانت « العثمانية » دعامة للولاء او التعرف الى الذات او الهوية ، فلماذا لا تعود الامور سيرتها الاولى وتعود الى العثمانية قيمتها كدعامة للولاء ؟ واذا ظلت العثمانية كذلك ، او عادت الى ما كانت عليه ، باعتبار ان الامبراطورية تظل قائمة ، فان الاسلام ، وهو ستار الدولة الروحي ، تظل له مكانته ، لكن يضاف الى الامرين امر ثالث هو القومية – العربية والتركية . واذاً فان افراد كل من الفريقين يمكن لهم ان يشبعوا رغبتهم القومية ، ويحققوا نظرتهم الدينية ، ويحتفظوا بكيان سياسي عالمي ، سواء اكان هذا دعامة تعرف ذاتي او لم يكن .

وحريّ بالذكر ان دعوة الجامعة العثمانية لقيت صدى في مصر . وكان صداها مزدوجا . فالذين كانوا يقرنون بينها وبين القومية العربية كانوا فئة من مهاجري ديار الشام ، ممن كانوا يعملون في حقل القومية العربية لكن دون ان يقبلوا بالانفصال عن تركيا . اما الصدى الآخر فكان مصريا يتمثل في الادب والشعر كما يتمثل في السياسة . فقد كان في مصلحة العمل السياسي المصري المطالبة بعودة مصر الى الدولة العثمانية (وكانت بريطانيا ، مع انها تحتل مصر ، ما زالت تعترف بمصر ولاية عثمانية . وظلت على ذلك الى ان اعلنت تركيا الحرب على بريطانيا) رغبة في التخلص من ربقة البريطانيين . ومن ثم كان انتشار هذه الدعوة .

وعلى كل فالمتتبع لهذه الاتجاهات عامة يستطيع ان يلاحظ فيها الكثير من التداخل والتعارض . فالوقت لم يكن قد حان بعد – ونحسب انه لما يحن – لقيام عقائديات (ايديولوجيات) واضحة السبل بينة المعالم

ويمكن القول اجمـــالا بان الدعوة الاسلامية دخلت في الجامعة العثمانية والقومية العربية لارتباط الواقع او التاريخ او كليهما في هذه القضايا الثلاث .

انتهت الحرب العالمية الاولى ، بالنسبة لهذه المنطقة ، بزوال الامبراطورية العثمانية ، وانتقـــال السيادة في الاجزاء العربية منها (اي الهلال الخصيب) الى بريطـــانيا وفرنسا . ومن الغريب ان زوال الامبراطورية العثمانية كان نقطة انطلقت منها تركيا لتحقيق ذاتها، اي ان القوميةالتركية استمرت تنمو، بعد ان زالت من طريقها العثمانية والخصومة مع القومية العربية والجامعة الاسلامية . اما بالنسبة الى الولايات العربية فقد نقلها زوال الامبراطوريةمن سيد الى سيد، وكان عليها، بعد ان حلم رجال القومية العربيةباستقلال البلاد وتوحيدها، ان تعود الى الجهاد في سبيل الاستقلال ، يضاف الى ذلك جهاد في سبيل الحفاظ على فلسطين لاهلها .

هذا الجهاد شغل الكثيرين عن هذه الفكرة التي كانت لا تعدو كونها بذورا ، اي القومية العربية . لكنها لم ينسها الجميع . فقد ظلت حلما واملا عند العدد الكبير من اهل القلم والرأي والشعر والسياسة والحـــكم، واستمر البعض ينفخ روحها في نفوس الشباب .

وفترة مـا بين الحربين مهمة جـدا بالنسبة الى الزاوية التي نعالج منها تطور هـــذه الافكار والنزعات والاتجاهات . فقد تعرض الشرق العربي الى مجموعة جديدة من التجارب ووجهات النظر لعله كان لها بعض الاثر فيتوجيهه نحو الاهتمام بدعامات لشخصية . فالشيوعية التي اصبحت الآن تدعمها دولة تروّج للفـــكرة، وتنظم المؤسسات التي تقوم بالترويج للفكرة ، جاءت المنطقة . وبعض فلسفات النظامـــين النازي والفاشي اهتدت الى ديارنا . واضاف العمل السياسي ضد المستعمر خبرة الى المسهمين فيه .

ولسنا نريد ان نتتبع هذه التطورات التي مرت بالمنطقة بين الحربين ، لكننا نريـــد ان نشير الى ثلاث مسائل طرأت على ما كان في الجو من قبل . واولى هـــذه المسائل ان فكرة القومية العربية وسعت وعمقت قليلا. فهذه التي كانت من قبل تشمل الهلال الخصيب او الهلال والحجاز، اصبح دعاتها يعتبرون ان الامة العربية هي مجموعة الشعوب التي تقطن بين الخليج العربي وجبال زغروس شرقا والمحيط الاطلسي غربا. فاذا كان الكاتب الذي يهتف بالقومية العربية قبل ١٩٠٠ او حتى بعدهـــا بقليل يفكر بالاطار الصغير ، فان الـكاتب الذي كان يعرض للعرب والعروبة والقومية العربية في الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن انما كان يقصد ان بلاد العرب اوطانه، من شامه الى بغدانه ومن نجده الى يمنه ومن مصره الى تطوانه. وليس المهم ان يقبل سكان هذه الرقعة القول بانهم عرب ، بل المهم انه هو يعتبرهم كذلك . اما اذا كانت ثمة اقليات عرقية او لغوية او غير ذلك فامرها في نظره هين ، فهي لا بد لها ان تتعرب اذا كانت تختلف عرقـــا او لغة ، ولا بد لها ان تعرف بنفسها اذا كانت لم تعرف بعد انها عربية .

والمسألة الثانية التي طرأت على مجموعة المحاولات لاقامة اسس للولاء وللتعرف على الشخصية هي قيام فكرة قومية جديدة . ونقصد بذلك القومية السورية التي كان مسرحها الجغرافي العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ، والتي كان مسرحها التاريخي التاريخ بكامله الممتد سبعة آلاف سنة او اكثر ، ومسرحها الحضاري هذه الحضارات السامية التي ظهرت فيها والتي طعمت فيما بعد بحضارات اخرى جـــاءتها من خارجها ، والتي عبرت عن نفسها في رسالتيها المسيحية والاسلامية . لسنا نناقش هنا ما في القول من خطأ او خطل ، كما اننا لا نود ان نبين ما فيه من صحة . ولكن نحن نجرب ان نبين المحاولات، وهذه ولا شك احداها. واذاً فقد انضمت القومية السورية الى القومية العربية (في اصلها الاول الصغير ، وفي اطارها الواسع المتأخر) والدعوة الى الجامعة الاسلامية (وهذه لم ينته امرها بوفـاة السيد الافغاني ، على ما يتضح من قيام الاخوان المسلمين في العقد الثالث من القرن الحالي) . وقد تركنا الجـامعة العثمانية والقومية التركية لانهما لم يبق لهما تأثير مباشر في التطور القومي هنا ، فالاولى زالت بزوال الامـــبراطورية ، والثانية انصرفت الى نفسهـــا .

وحري بالذكر ان الدعوة الى القومية السورية كانت على العموم اوضح في تبيان منهاجها من الدعوة الى

القومية العربية .

اما المسألة الثالثة التي طرأت على هذه الاتجاهات فهي دخول عنصر العلمانية . وقد عرف القرن التاسع عشر والقرن العشرون حركة علمانية واضحة حينا (مثل دعوة شبلي الشميل وفرح انطون) وخفيفة حينا آخر (على نحو ما نشر من مقالات في « المقتطف » اولا وفي « السياسة الاسبوعية » وغيرها ثانيا) . ولكن الذي يعنينا من الاشارة الى الفكرة العلمانية هو اعتبارها جزءا من العقائدية ، وبذلك تدخل في صميم بحثنا . فالقومية العربية المتوسعة ، على نحو ما بدت في دعوة حزب البعث ، والقومية السورية ، اعتبرتا علمانية الدولة اصلا في عقائديتهما ، وكانت الثانية اسبق من حيث زمن الاعلان الرسمي لذلك .

ومعنى هذا ان دعوتين من الدعوات القومية المختلفة ارتأتا ان تتحللا من العامل الديني كأساس للولاء او التعرف الذاتي ، واتجهتا بكليتهما نحو العامل القومي او العوامل القومية البحتة ، اي انهما اعتمدتا التاريخ وتجاربه واللغة وما فيها . ولعل القومية السورية كانت احرص على تحسس العامل الجغرافي ومدى تفاعله مع العوامل الاخرى .

وظلت القومية المصرية تسير في طريقها : جهاد في سبيل استقلال مصر ، ومقارعة الدولة البريطانية بالوسائل المتيسرة .

لسنا نريد ان نتابع هذه القضية العامة على نحو ما تطورت منذ الحرب العالمية الثانية ، فان التناقض الذي نراه حتى في الدعوة الواحدة يحملنا على التوقف حيث وقفنا . ويزيد التناقض بلبلة هذا السيل المتدفق من الكتب والكراريس ، بله المقالات في الصحف والمجلات ، الذي له صفة رسمية او شبه رسمية ، والذي جاء يكرس الاقوال والآراء والافكار ، بقطع النظر عن صحتها من حيث التاريخ ، او دقتها من حيث التعبير ، او اصالتها من حيث النية ، او ضم عناصر اقتصادية اليها سواء صحت التسمية ام لم تصح .

ولكن الذي نود ان نخلص اليه من هذه العجالة هو رأي يتلخص فيما يلي :

اولا ، ان دعامتي الولاء والتعرف الى الذات كانتا العثمانية والاسلام . وقد استمر ذلك حتى العقود الاولى من القرن التاسع عشر .

ثانيا ، ان تضعضع الدولة العثمانية واستمرار ضعفها تدريجا انتهى باحدى الدعامتين الى ان فقدت قيمتها نظرا وواقعا .

ثالثا ، ان ورود الآراء الجديدة احدث بعض الشك في قيمة مجتمع يقوم على اسس دينية فحسب . لذلك اتجهت الانظار الى البحث عن مجتمع سياسي .

رابعا ، شملت المحاولات التي ظهرت في المنطقة لتعيين سبل الولاء الجديدة ودعائم التعرف الى الذات اتجاهات قومية ودينية — القومية التركية والقومية العربية والقومية المصرية والجامعة الاسلامية والجامعة العثمانية والقومية السورية .

خامسا ، بعض هذه زالت من حيث تأثيرها في التفكير السياسي المباشر في الشرق العربي اليوم ، مثل الجامعة العثمانية والقومية التركية .

اما الاتجاهات الاخرى فلا تزال موجودة . وهي لا تعدو كونها ، من حيث قيمتها الفكرية البحتة والعقائدية الصافية ، محاولات جماعات من الناس تعيش في هذه الرقعة وتجرب ان تتعرف الى نفسها ، فتبحث عن الاسس ، وتفتش عن الدعامات ، وتتقصى الطرق ، وتتلمس الوسائل ، وتتحسس المبادىء .

ولانها بعد في دور التجربة والمحاولة فانها تقع في مهاوي الاخطاء . وليس هذا عيبا ، ولكن المهم ألا تعمى عن الاخطاء فتصر على حسابها نجاحا . فالاقوام كالافراد تتعلم بالتجربة والخطأ ، ولكن يجب ان تستعد لترى الخطأ حتى تعترف به وتتجنبه في المستقبل .